

الوعاظ والخطباء

للأستاذ علي الطنطاوي



تواردت الخواطر والأقلام (في أجزاء الرسالة الأخيرة) على نقد أساليب الوعاظ في الدعوة إلى الله ، فساء ذلك بعض الواعظين عندما ، ولو فكروا في مغزاه وما يلزم منه لسرم ، ولعلوا أنه لولا الاعتراف بخطور الوعظ وأهله ، ومنزلتهم من الأمة ، وعلو قدرهم عند العامة ، ما كتب في (الرسالة) عنهم ، ولا اشتغل الكتاب بتقديم . ثم إن أولى ما ينبغي أن يتحل به الواعظ أن يبدأ بنفسه فيمظنها ، وأن يخلص قوله لله وعمله ، وأن يفرغ من شهوات نفسه ، فلا تملكه شهوة الشهرة والجاه ، ولا شهوة الغنى ولا شهوة للنساء ، وأن يكون في فعله أوعظ منه في قوله ، فلا يأمر الناس بالزهد ثم يخالفهم إلى ما زهدهم فيه فيزاحم التكالبين عليه ، ولا يتظاهر بالدين ابتغاء الدنيا وتوسلاً إليها ، فيجمع من حوله السامعين على الكسب الحلال ، والجادين في جمع المال من حله ، ليأخذ من أموالهم ما يتعالى به

العربية ووجود ألفاظ أعجمية الشيء الذي كان منتشرأ في مصر والشام في النصف الأول من القرن التاسع عشر . ثم نذر الدكتور رسم بأدلة أخرى ، فتأكد من محفوظات عابدين أن شريف باشا كان حاكماً طاماً على الشام من أوائل ١٢٤٨ هـ إلى أواخر ١٢٥٦ هـ . وعرف من سجلات المحكمة الشرعية بالقدس أن أحمد أغا دزدار كان قائماً بأعمال المتسلمية في القدس في ربيع الأول سنة ١٢٥٦ هـ . وثبت أيضاً من أن محمد شريف باشا كان يسيطر على جميع حكام مقاطعات الشام ومن بينهم متسلم القدس أحمد أغا دزدار ، ومن أنه كان يطلق الأوامر من محمد علي باشا وإبراهيم باشا لكي يبلغها للجهات المختصة . ووجد الدكتور رسم أيضاً أن محتويات هذه الوثيقة تتفق مع المعلومات المعروفة عن علاقة اليهود بالبراق وموقف المسلمين منهم من ناحية الإحاطة لليهود زيارته وتماهل حكومة محمد علي الذي جعلهم يتظلمون للحصول على الإذن بتبليط البراق . وانتهى بحث الدكتور

عليهم ، وليندوق لقائده العيش من عطاياهم ، وليسلمهم فوق ذلك حريتهم وعقولهم وكرامة أنفسهم عليهم ، فوعر نفوسهم في مآربه ، ويسيرهم حيثما شاء ، وينظم بين يديه ليستكبر عليهم ، ويجعل الدين وسيلة إلى ذلك ، فيجعل طاعة نفسه من طاعة الله ، بل ربما جعل نصيبها من هذا للشرك أكبر ، والسياد بالله من ذلك . ولقد حدثني من أقطع بصدقته أنه سمع مرة واعظاً من هؤلاء (يقص) على تلاميذه قصة صريد سمع شيخه يقول : يا الله ، ثم يمسي (زعم القاص) على وجه الماء الجاري ، فسأله أن يتبعه ، فقال له الشيخ : قل يا شيخني فلان (يعني للشيخ نفسه) ثم اتبعني فإنك تمسي مثل . ففعل الريد ذلك ، وتابمه أياماً ، ثم خطر له (يقول الوعاظ) أن يقول : (يا الله) ، مكان قوله : (يا شيخني) فقالوا فترق في الماء ، ومات ...

فهل يشك مسلم في أن هذا الوعظ مخالف للإسلام مبين له ؟ وهل يتضرب الواعظ للعالم للصادق أن ينتقد الواعظ الجاهل المفسد للكذب ؟ أو ليس من دأب الواعظ للصادق أن يتقبل النصيحة ويشكر عليها ويعمل بها ؟ وأن يتخلص من شرور نفسه قبل أن يتصدر للوعظ والإرشاد ،

أسد رسم بإثبات صحة هذه الوثيقة من الوجهة اللغوية للتاريخية سواء من ناحية الورق والخبر والقلم وطادات الرسالة واللغة والأسلوب ، أو من ناحية شخص المرسل والمرسل إليه ، أو من ناحية مطابقة وانفاق معلوماتها مع الظروف التاريخية^(١)

وهذه أمثلة عملية تبين أهمية وطريقة نقد الأصول التاريخية من ناحية إثبات صحتها وأصالتها وخلوها من التزوير والانتحال^(٢) ؛ وبشير ذلك لا يختطع المؤرخ أن يعمل لأنه إذا بني أبحاثه على الأصول المزورة خرج بنتائج بعيدة عن الحقيقة وخائفة للواقع التاريخي . وسوف نبعث في المقالات التالية نقد الأصول من نواح أخرى

(بتلي)

حسن عثمان

(١) أسد رسم : مصطلح التاريخ : ص ١٦ — ٢٢

(٢) لم أذكر شيئاً من الأمثلة العملية التي قمت بها وإنما أرى ذلك حتى أنصر الوثائق التي تحت يدي

وكيف أستطيع الانماط بالخطيب الذي جاء في خطبته مرة
بحديث موضوع ، فلما انتهت للصلاة وتفرق الناس أقبل عليه
شاب من المشتغلين بالحديث والناظمين إليه فذكره بأن ذلك
الحديث موضوع لا أصل له ، فإنا كان منه إلا أن رجوع من
الجمعة المقبلة ، فحمل خطبته في هذا للشباب وأصحابه (الوهابيين
أعداء الرسول ...) وأثار عليهم العامة حتى نالهم شر وأذى .
فأين مكان الإخلاص من نفس هذا الخطيب ؟

إن أول شرط للواعظ أو الخطيب أن يكون مخلصاً في وعظه
لله ؛ وللشرط الثاني أن يكون عالماً بالربوبية ، عارفاً بالتفسير
والحديث وروايته ودرايته ، ولتلقه أصوله وفروعه ، وإلا كان
وبالآ على الدين وأهله . ولقد أدركت والله من العامة من كان
يكور العامة ، وبطيل الاحية ، ثم يقعد للتدريس في مسجد
دمشق الجامع فيقول ما شاءه الجهل والهوى ويجعله ديناً ، والمفتي
والمقاضي والمعلماء يرون عليه أو يملون به فلا ينكرون عليه ،
ولو اعتدى هذا الرجل على حية أحدهم لآقام عليه الدنيا . أفكان
الدين أهون على أحدهم من جهته ؟ وأدركت عامياً آخر ذكياً
خدع طائفة من أذكيااء للبلاد وعلمائه فاعتقدوا به ، وتأدبوا بين
يديه ، وأخذوا عنه تفسير الآثار . وأعجب من هذا رجل يدعى
النبوة يقيم الآن في غوطة دمشق ، وقد آمن به أكثر فلاحى
قرية (حرسنا) . ولقد خبرني من شهد صلته بأصحابه أنهم
يقهقهون ويكركرون كما جاءت آية نعيم ، ويتصايحون مستبشرين
ويهنئ بعضهم بعضاً ، وأنهم سيكون منتعبين مولودين كما سموا
في الصلاة آية عذاب ؛ وربما (أخذ بعضهم الحال) فقفر في الصلاة
أو صاح أو التبط بالأرض . ولهذا المتنبي أو (التمهيدى) ضريبة
دأمة على أصحابه يؤدونها إليه باسم الزكاة فيشتري بها العقارات
والحقول ...

وللشرط الثالث حسن الأسلوب في الوعظ ، وغماطة للناس
على قدر عقولهم ، واجتناء طريق اللين والالطف . وللواعظين
أسوة في ذلك بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهم من
سيرته قدوة صالحة ، فأين هم عنها ؟ وما لا أكثر من عرفنا منهم
لا يعرفون إلا طريق العنف والقوة الذى يمسد للناس عن
الدين ، ويملظ قلوبهم عليه ، ويفرهم منه . فلا يرون في مجالسهم

حق يكون الإسلام هو الذى يتكلم على لسانه ، وحق يتروم
السامعون أن ملكا هو الذى يعظهم ، أو جسداً إنسانياً ضم
روح ملك من الملائكة قد ارتفع عن شهوات الأرض ليتصل
بكالات السماء ، وأنه لا يزهدهم في دنياهم ليعوزها من دنوهم ؛
فإن أنصوا منه غير ذلك زهدوا فيه هو وقى وعظه ...

كان في مسجد من مساجد دمشق خطيب جهير الصوت ،
طلق اللسان ، معتزل مستور ، يعتقد للناس إخلاصه ودينه
وتخطيه أهواء نفسه ماشياً قدماً على صراطه المستقيم ، صمد
النبر جملة من الجلع ، فاستهل خطبة بآية من القرآن فيها وعيد
للكافرين شديد ، ومضى من بعدها يبرق ويرعد ، ويسوق الجمل
أخذاً بعضها برقاب بعض ، وكلمها من مادة (كفر يكفر ...)
حتى إذا ظن أنه أتبع وأشبع ، وملأ نفوس السامعين سخطاً
وغضباً ، عمد إلى التصريح بعد التلويح ، فإذا القى انصبت عليه
هذه الجم ، ونالته رجوم الشياطين ، (رجل تجرأ على دين الله ،
فتكلم في الداعين إليه ، والدالين عليه ، ومن رضى عنهم الله وعقلاء
خلقه : خطباء المساجد) . فلما قضيت الصلاة استقرى للناس الخبر
فإذا هو صاحب جريدة كتب مقالاً ممتدلاً في الدعوة إلى إصلاح
الخطب النبوية ، فبث الخطيب بمقالة يرد بها عليه فلم ينشرها وإنما
أشار إليها ، فكان جزاؤه أن تكون الخطبة كلها في ذمه
وتكفيره . فانصرف للناس من يومئذ عما كانوا يمتقدون في
الخطيب ولم يمد يبلغ وعظه ذلك البالغ من نفوسهم ، وجعلوا
يرون فيه خطيباً له (نفس) ، وهيبات ينفع واعظ أو خطيب
له (نفس) ...

فتعالوا أنبتوني من الذى جعل المنبر ملكاً لهذا الخطيب ،
يفصرف فيه تصرفه بثوبه ودابته ، ويجعله سلساً له إلى شهرته
وشموته ، وهذا المنبر إرث رسول الله ، والخطيب خليفته
في الدعوة إلى دين الله وأطراح للنفس والهوى ؟ ألم يرو الرواة
أن علياً أمير المؤمنين رضى الله عنه كان يتبع مشركاً (في المركة)
ليقتله ، فلما أيس الشرك من الحياة تلفت إلى علي فبصق على
وجهه ، فكف عنه على ، فتليل له ، فقال رضى الله عنه : كنت أنرى
قتله لله وحده ، فلما بصق على خفت أن يكون قد داخاني غيظ منه ،
فخشيت أن يكون تلبه انتصاراً لنفسى ، فلذلك كقفت عنه . أليس
في هذا الخبر (وإن لم يأت عن الثقات) عبرة وأسوة للواعظين ؟

والخطابة يوم الجمعة من أكبر أبواب الوعظ ، فإذا صاحت
 صلح بصلاحها فعاد الأمة ، وإن فسدت أفسدت . فتنى يتم
 تنظيم الخطابة ، بحيث يختار لها الكفو العالم ويمدل عن طريق
 الوراثة فيها ، فلا تنتقل بعد الخطيب إلى ابنه للصغير الذى
 لا يدرى ما يكون منشؤه ومصراه ، ويقام له وكيل رسمى ؛
 بل يعلن عن الخطابة الحالية ، ويجعل بين الطالبين سباق وامتحان ،
 ثم ينتقى أقدرهم عليها وأصلحهم لها . ولو كانت وراثة لورثها أبو بكر
 ابنه ولحقها عمر إلى ولده . فن أبن جشم بهذه للقاعدة الواهية ؟
 فإذا تم الاختيار على ما ترضى المصلحة الاسلامية ، أخذ
 الخطيب بتوع رقابة أو إشراف يحسب أن يحيد فيختار من
 الموضوعات ما يؤذى المسلمين ، أو يكون فيه منفعة للخطيب
 شخصية ، ويجعله ينتقى أقرب الموضوعات لأحداث الأصموع ،
 فيبين فيها حكم الله ، ويأمر فيها بالمعروف وينهى عن المنكر ،
 بشرط أن يقوم بهذه الرقابة جماعة للملاء أنفسهم ، وألا تمنع
 إلا ما يخالف الإسلام ومصصلحة المسلمين ، وألا تمس حرية الخطيب
 فيما عدا ذلك ، وإذا تم الحصول على هذه الثمرات من غير رقابة
 أصلاً فذلك هو الأولى ، وهو ما عليه المسلمون من قديم الزمان

هذا وإن الموضوع خطير ، ومجال القول فيه ذو سعة ،
 والواعظون المالمون للصادقون أحق للناس بالكتابة فيه ، فإن
 صاحب النار أدرى بما فيها ، وأحسن شىء أن يمتلى للقوس
 باربها ، وإننا نسال الله أن يجعلنا من أهل الإخلاص
 عن الطنطاري

بمجموعات الرسائل

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأمان الآتية :
 السنة الأولى في مجلد واحد ٥٠ قرشا ،
 و ٧٠ قرشا من كل سنة من السنوات : الثانية
 والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة
 والثامنة في مجلدين . وذلك عدا أجرة البريد ونسرها
 خمسة قروش في الداخل وعشرة قروش في السودان
 وعشرون قرشا في الخارج من كل مجلد .

شاباً من تلاميذ المدارس مثلاً إلا جعلوا الموضوع في تصديق
 من يحلق لحيته ، ومن يتشبه بالنساء ، وأمثال ذلك ، حتى تأكل
 هذا الشاب الأنظار ، فينشق في عرقه خجلاً ؛ ثم لا يعود إلى
 المسجد أبداً ؛ ولو أنهم حاسنوه وجاملوه لكان من المتقين .
 حضر درس للشيخ « بدر الدين » رحمه الله تعالى شاب حليق
 حاسر من شبان (المودة) ، وكان للشيخ (على غادة) معارفاً .
 فقال له أحد التقلاد من الحاضرين : « سيدى ، ما حكم الشبان
 الذين يتختثون ويتشبهون بالنساء ويتزيون بزى الكفار » .
 فأدرك للشيخ بذكائه للنادر أن في المجلس غريباً ، فرقع رأسه
 فلعج للشباب ، قدماه فأجلسه بجواره وأكرمه ، وقال للسائل
 مؤنباً بأسلوبه الناعم : « يا . . . هذا يتبارك به » يعنى أن شاباً
 مثله يطلب العلم ويؤم مجالسه ويستهدى للطريق إلى الله ، أهل
 لأن تبرك به أمثال ذلك للتقيل الذين (قطعوا الطريق) إلى الله
 بنظمتهم وغباوة قلوبهم

والشرط الرابع هو أن يعلم الواعظون أنه ليس في الإسلام
 طبقة هي أولى بالله من طبقة ، وليس بين العبد وربّه وسيط ،
 وأن الإسلام ليس فيه (رجال إكليروس) ، فإذا علموا ذلك
 اقتصدوا في تكفير الناس لا تفة الأسباب ، وراجعوا الآثار
 الواردة ليعلموا حقيقة الكفر والإيمان ، فلا يرمون بالكفر كل
 من خالفهم في رأى أو ناقضهم في مسألة قد يكون لها وجوه ،
 ولا يصدررون مثل الكتاب الذى أصدره منذ بضع سنين عالم
 معروف في دمشق — كان أصدر قبله بأكثر من عشر سنين
 كتاباً آخر — كفر فيهما كل من يقول بجمرة الأرض ،
 وكفر الشيخ محمد عبده والسيد رشيد رضا ؛ ورد أشنع الرد على
 ابن حزم والشيخ محمد بن حنيت المطيبي ، رحم الله الجميع . وأخذ
 بقوله بعض خطباء الماخذ فكفروا على المنابر من يقول إن
 الأرض دائرة حول الشمس . ولا نسمع أحداً يجعل قيامك
 للضيف يدخل عليك كالسجود له سواء حكمهما ، لأن كلامهما
 (على دعواه) من أركان الصلاة استويا في ذلك . ونسى
 أن للقعود أيضاً من أركان الصلاة ، أفيحرم قعودك بين يدي
 صديقك أو أستاذك ؟ ؟
